الحيـــاة صادقة !

[إلى ضحية الحرمان والأحزان النابتة «ى» !]

للأستاذ عبد المنعم خلاف

هـذه الشعلة التي تسكن جسم الحي ، تتطلب إحساساً كاملاً بها وذوقاً مستوعباً لها يتملاها مليًّا ، وينهل من حرارتها عَبًّا وريًّا ...

هذه الشعلة تنادي الجسد أن يحييها ليحيا بها ، ويُعدها بوقود ليستدفئ ويحتفي ...

إنهـا كمنى النار : حرارة في جسم حار ... عَرَضٌ على جوهر لا انفكاك بينهما ، ولا استقلال لوجود أحدهما عن الآخر ...

إنها لا تنتقر لمن يحاول كبتها وإخمادها ، وإنما تخنق فيه فتُصليه وتُرديه ...

شعلة الحياة هي أكبر هبات واهب الحياة ؛ لأنها نفحة من وجوده الخالد ! فكيف يأبى العود الأخضر أن يدب فيه النماء ، ويتسرب فيه المـاء ، وتنبثق منه البراعم ذات الأفراخ الزُّغب ، والأوراق الخضر ، والزهرات النضر ، والثمرات الصحاح المملوءة بأسرار الحياة ؟!

لا جرم أن يصير هذا العود المتأبي على عوامل الحياة والنماء حطباً يحترق بعوامله الذاتية ويموت في موضع الحياة ، حتى تأتي يد الحطّاب فتأخذه لتقذفه في النار ، وتنقى منه صفحة الحقل الخصيب ...

* * *

إن الحياة صادقة ، وذوو الفلسفات الذين ينادون بالحرمان من ينابيعها كاذبون !

إنهـا لا تحابي أطفالها الذين يأبون رضاع أفاويقها ، ولا تمكث بجوارهم لتعلمهم طويلاً إلا ريثما يدركون وجهاتها ويصيرون صالحين لحمل شعلتها ذات الأمانات والأسرار ثم تجازيهم على العقوق والمخالفات ...

فلتحذر القلوب الشابة الشاعرة التي قد يخدعها ما في الفن من تزاويق وضباب ملون ، أن تستسلم لخطفات الشعراء المتشائمين ، وأخذات الرهبان المتعامين ، وشطحات المتصوفة المتعطلين ... أولئك الذين يسيرون أحراراً من قيود الأرض ، لا يبيضون في عش ... وإذا عاش الإنسان في عش خضع لقوانين الأرض ، وارتبط بها كارتباط الحيوان والنبات بحول القرية ... فلم يفكر في الشرود

وأنى له الشرود ودواعي الحياة الأرضـية تناديه في قلبه بالعواطف الأبوية والزوجية ، وفي جسمه بالمحافظة لمقاومة عوامل هدم العش ، وفي فكره بالتدبير للاقتناء والتوريث ... !

أما إذا ظل منفرداً حتى جاء أوان الإدراك الكلي ، وحان بلوغ الأشد ، فسيموت في نفسه الخوف من الحياة والحب لها ، وحب الارتباط بالواقع ... وسيُكَنّي التدبيرَ والعمل للاقتناء والتوريث ، وسيستمر حتى يخلص فكراً طليقاً بعيداً عن قيود الأجسام وضرورات الأرض ، ويكون قلبه وكراً لما كنات غريبات من الأفكار والأوهام ، كما يكون الركن الخرب مسكناً لطيور وحشرات لا تحبها الحياة ، ولا تحب هي نور الحياة ... !

* * *

لن يجـدي الإنسان شيئاً أنه يقف حياته على ملء يديه بالأضواء والرياح والمياه ، وما لا قرض عليه ولا محصول يدوم منه إلا صوراً بيانية في ورقات جافة ...

إن الحياة هي كلمة الله النافذة إلى القلوب ، لا يحسها إلا من يحملها بأعبائها ، ثم يحاول أن يسلمها لغيره ... وقد أودعها الله قلب آدم ، « فجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم يرجعون ... »

إنهـا كلمة السر ! من لا يعرفها لا يستطيع أن يعبر في المسالك والدروب التي طرقتها أرجل القافلة منذ فجر الحياة إلى يوم الناس هذا ...

* * *

كثير من المتطلعين المترسمين لما يولد في الكون من عجائب يحبون أن يروا مخدوعاً شاذاً يأتي إليهم بطبائع غريبة وألوان مستحدثة من الحياة والتفكير . ومن هنا كان إعجابهم بأمثال « أبي العلاء » و « نيتشه » و « شوبنهاور » وغيرهم من المتشائمين المتشككين الذين أبوا أن يمدوا أيديهم إلا إلى الحنظل والأشواك ويتركوا ما في الحياة من تفاح وأزهار . ومنشأ إعجابهم بأمثال هؤلاء أنهم يحبون أن يروا الشذوذ ليدركوا منه القاعدة العامة التي تنتظم حياتهم .

إنهم يحبون أن يروا الضحايا الملوبين ليتخذوا منهم مادة لأقوالهم وخيالهم وتأملاتهم .

وكثيراً ما يخدع الشباب المفتون بهذه الحياة الشاعرة الحادة المتشاعة المنطلقة من قيود الأرض التي لفتت أنظار النقاد والمتكلمين ودعتهم إلى التحليل وإضفاء النعوت والألقاب وضفر أكاليل الغار ونثر الأزهار . فيحب أولئك الشبان الشعراء أن يحوزوا مثل تلك الشهرة ولو أصابتهم أوجاع الملوبين والمحرومين ...

ولكن ما جدوى الشهرة وأكاليل الغار على من أقفر قلبه من بشاشات الحياة ؟ وعلى من رأى الحياة عبئاً ثقيلاً يود الفرار منه ولو إلى جهنم ؟

إن السعادة لن يكون منشؤها غير الفيض الذاتي من القلب الذي يتصل بأعماق الحياة ذات المسرات الأصيلة . ولن تأتي بها شهرة أو مال أو ألقاب يخلعها عشاق الأعاجيب .

فليحذر الشباب أن يصدقوهم ويكذبوا الحياة ...

* * *

كلا . لم نخرج إلى الوجود لنغلظ أنفسنا عن أطايبه إلا ما فيه تأثيم ومساس بحقوق الجماعة التي تنمو بينها عوامل الحياة فلنأخذ طوعاً من الوجود كل طيب مَرِيء كما نحمل كرهاً على تناول الخبيث الوبيّ من آلامها ... وليس من العدالة أن نقبل الألم ونأبى الملاءمة ، إلا إذا أردنا أن تكون حياتنا سلسلة من النقمة والسخط والوجيعة واجترار الأحزان ورؤية الحياة من وجهها المظلم وحده ...

ولندفع أنفسنا إلى غايات الحياة الكبرى في شيء من الخديعة والتلبيس كما ندفع الأطفال إلى غايات مستقبلهم ...

وإن الاعتراف بازدواج الساءات والمسرات في الطبيعة هو أول أسس النجاح واجتياز محنة الاختبار في هذه الدار . ونكون سعداء حينما نخرج من هذه الحياة متوازنة فينا نواحي الآلام والمسرات . ونكون أسعد حينما نخرج متفائلين طيبة نفوسنا راضين عن الحياة وواهب الحياة ...

وإن الأقدار ترمينا بيد السوء لتمسح عنا بيد النعمى . فإذا وقعت علينا إحدى اليدين فن الفطنة ألا ننسى أن الأخرى وراءها . فواجب أن نفر من الحزن ولا نحسبه ضربة لازب ، وألا يطيش بنا الفرح فنحسبه ضربة لازب ...

عينان لعينين ، وشفتان لشفتين ، ويدان ليدين : تريان وتذوقان وتذودان !

تلك شركة إنسانية أرادها الله وطبع عليها الحياة . فمن رأى بعينيه وحده لا يرى نفسه ... ومن ذاق وحده قتل حسَّه ... ومن ذاد وحده لم يحْمِ جنسه ...

شركة أرادها الله ليخرج من بينها أيدياً وشفاهاً وعيوناً تنظر وتذوق وتعطى شملة الحياة حطباً ، ونواميسها عملاً ، وطواحينها طحناً ...

* * *

هذا الجنس الطيني لن يكون مَلَكياً خالصاً وهو في الأرض والمطلوب منه ألا ينسلخ ويتجرد من قوانين التراب . ومن قوانين التراب المزاوجةُ والتجمعُ والمؤالفةُ بين المتشابهات . فَبَدوات الآمال المحرَّرة ، وأحلام الانطلاق الكلّي لم تخلق لهذا العالم الأرضي ، وإنما هي نماذج مما سيكون هناك ... تراها أرواحنا لتتعلق بها وتعمل على بلوغها بعد الرحلة ...

والناس يحيون هنا بالجسد أكثر مما يحيون بالروح ، فهم إن عجبوا من المتحررين من الأجسام فما ذاك لأنهم يريدون اقتفاء آثارهم ، وإنما يقفون أمامهم لحظة أو لحظات ثم ينفلتون إلى غمرات الحياة ذات السحر والسلطان الآسر القاهر !

فلا تأخذنَّكم خواطف العزلة يا شباب الشعراء ، ولا تتخطفنَّكم الأشباح والأوهام من رحاب الجماعة وأحضان الطبيعة ذات المنطق العملي ؛ فإن لذلك عقاباً صارماً وثمناً غالياً يدفع من الأعصاب والدماء وقوى الجسد والروح . ولا مقابل لذلك إلا قبض على ريح ، ومضغ لماء ، واغتراف من سراب !

* * *

ما نحن المتكلمين تجاه وجه الحياة الواضح المعروف إلا نكرات مبهمة لا يعرفها أحد . أما هي فوجهها معروف السمات صادق القسمات . فإذا طالعنا الناس بوجوه مخالفة لها كذبونا وصدقوها ...

وما منطقنا تجاه منطق الأبد العميق الذي يجر الأحياء إليه بقيود وحبال من سحره الخفي ، إلا منطق تافه ذو صوت خافت تذهب به ضجة الحياة ذات المراكب الثقيلة والمواكب المتلاطمة ...

فليكن وجه أدبنا صورة من وجه الحياة الصادق . . . وليكن منطقنا منتزعاً من منطقها الصارم ... ليكونا أدباً ومنطقاً

يخدمان أهداف الحياة ويخففان أعباءها ...

وليكن عرضنا للآلام والأحزان عرض المذكر بدولتها على النفوس حتى لا تطيش بها الأفراح والمباهج ، لا عرض القوى جعلها يخور فتنه . وليكن أدب الحرمان بمقدار الحرمان القوى في الحياة ، لا نزيد عليه ولا يضخمه ولا يجتره ...

والحياة وهوب معطاء أكثر مما هي بخيلة ضنينة . فليكن تصورنا لها بالفن كما هي ، بل إن استطعنا أن نزيد بالفن ألوان مسراتها وأنواع عطاياها فلنفعل ...

إن الحياة هبة عظمى ثمينة من واهبها ! فلنعرف لها مقدارها ...

ولنهتز مع أعوادها الخضر للرياح والنسمات والأنداء والأضواء اهتزاز النماء والإنتاج والإثمار وإعطاء الأسرار للأبناء بعد أخذها من الآباء ...

* * *

ما ضر « ميا » لو عاشت « أنثى » للبيت والأمومة والفن المخفف بدل تلك الرهبانية التي اختطفتها من رحاب الحياة وانتهت إلى اختطافها من سومعة الفن كذلك ؛ فحرمت المروبة وحرمت الأدب من أعذب صوت نسوي يشدو ببيان عربي ؟

إن الفن تفر إليه النفس لتخفيف أعباء الواقع ؛ فينبغي ألا يتخذ غذاء دائماً للنفس وإلا فقد سحره وأورث النفس سآمة لا دواء منها . ومن أين الدواء وقد صار « أفضل ما في النفس بقتالها » . وصارت الغُصّة مما كان يزيل الغصة ؟ !

وما كان ضرها لو صرت بموت أبويها كما يمر سائر الناس بموت الآباء والأمهات : بكاء على الفراق حتى نتعود الفراق ، فيندمل الجرح وننسى إلا في ساعات الذكرى التي لا بد فيها من استحضار صور الأحباب والأعزاء الذاهبين ، فتدمع عيوننا دمعاً لذيذاً رقيقاً يغسل غشاوات القلب بماء غير حميم المدامع . . .

إن احتجاز الأحزان الثقيلة واجترارها أعظم ما يبتلى به القلب وتحطم به الأعصاب ويمحو بشاشات الأيام ويحبس النفس في جدرانها تحت ظلال من الخواطر القاتمة ...

مسكينة « مى » ! استغنت عن صداقاتها ومجالس أسمارها وأحاديثها في أشد أوقات حاجتها إلى السلوى بها !

لقد نجاها الموت من عذاب مثلث الأوجاع : التفرد والشكل ، والمرض ...

وما كان لأنثى أن تحمل مثل ما حملت وتنهض به ...

عبد المنعم خلاف

الرسالة في سنتها العاشرة

على الرغم من استحكام أزمة الورق ومواد الطباعة وارتفاع أثمانها إلى عشرة أضعاف ، ستستمر الرسالة على نظام العام السابق من التخفيض والتقسيط والاهداء ، مع المشتركين القدماء . أما المشتركون الجدد فيؤدون الاشتراك كاملا مقسطا أو غير مقسط . ومن المقرر أن المشتركين القدماء لن يتمتعوا بمزايا الاشتراك المخفض إلا إذا بدأوا اشتراكهم من ديسمبر إلى آخر يناير ١٩٤٢

ولن يمد الأجل بعد ذلك